كتبها جون برجر، ونشرت في "ذا غارديان" في ١٢/١٢/٢٠٢٤.

أمضيت ما يقارب الثمانين عامًا في الكتابة. كانت بدايتها في كتابة الرسائل، ومن ثم بدأت في كتابة الشعر والمقتطفات الأدبية. واتجهت بعدها إلى كتابة القصص والمقالات. لاحقًا ذهبت إلى تأليف الكتب، وحاليًا أكتب الخواطر. لطالما كان فعل الكتابة بالنسبة لي فعل إحياء للذات، فعلًا يُعينني على التماس المعنى ومواصلة الحياة. ومع ذلك، أجد في الكتابة امتدادًا لشيء أكثر عمقًا وشمولًا- وهو علاقتنا باللغة في حد ذاتها وهي موضوع هذه الخواطر الوجيزة.

لنبدأ من خلال تقصي فعل الترجمة من لغة إلى لغة أخرى. معظم الترجمات الحديثة تخضع لتقنيات تكنولوجية، بينما أشير هنا إلى الترجمة الأدبية؛ ترجمة النصوص التي تُعنى بالتجربة الفردية للإنسان.

تفترض وجهات النظر التقليدية أن عملية الترجمة تنطوي على أن يقوم المترجم/ة بدراسة الكلمات من اللغة ذاتها في صفحة، ومن ثم نقل هذه الكلمات إلى مقابلها في اللغة الأخرى في صفحة أخرى. وذلك ما يسمى بالترجمة الحرفية التي تنقل كل كلمة بكلمة، على أن يتم تطويعها بعد ذلك للامتثال للموروث اللغوي والنحوي للغة الثانية وتحقيق الانسجام المطلوب. وأخيرًا، العمل على إعادة صياغة النص لمحاكاة ما يمكن أن يشكل معادلًا لـ "صوت" النص الأصلي. هذا إجراء تتبعه العديد من الترجمات، والنتائج قد تكون جديرة بالتقدير ولكنها لا تتجاوز أن تكون على هامش تحقيق المعنى المرجو من الترجمة.

لماذا؟ لأن الترجمة الأصيلة للنص لا تكون في علاقة ثنائية بين لغتين، بل بالأحرى هي علاقة ثلاثية إذ يظهر العنصر الثالث فيما يشكله ما وراء النص الأصلي، ما هو سابق لكتابة الكلمات. حيث تقتضي الترجمة الحقيقية العودة إلى حالة ما قبل اللفظ. فحينما يقرأ المرء كلمات النص الأصلي ويعيد قراءتها لبلوغ حالة من الإدراك، ينفذ خلال هذه الكلمات ليتحسس البصائر والمعارف التي استدعت كتابتها أولًا. وبذلك يحصد ما ظفر به من معانٍ قد تشكل في هيئتها الأولى كيانًا مرتعشًا في حالة سكون لفظي "wordless" ليموضعها في قلب اللغة التي يريد الترجمة إليها. حينها، تغدو الغاية الكبرى في إقناع اللغة المضيفة باستيعاب واحتضان هذا الكائن الذي يترقب تبدّيه لغة.

جون برجر: الأمل والهزيمة (ترجمة)

تستحضر هذه الممارسة في الترجمة اللغة في كونها عصية على الاختزال في مستودع كلماتها وعباراتها، أو الإحالة إليها عبر مخزون ما كُتب من أعمال. اللغة المحكية أو المنطوقة هي جسد، كائن حي تتجسد فراسته في الشفاهة، ووظائفه في البيان. وموطن هذا الكائن بقدر ما يكمن في الشفاهي من اللغة فهو يكمن في اللاشفاهي أيضًا.

لنتأمل مصطلح "اللغة الأم" (Mother tongue). في اللغة الروسية يُقال لها (rodnoy-yazik)، والتي تعني "اللغة الأقرب" و"الأعز". وفي بعض الحالات، يمكن لنا أن نسميها "اللغة الحبيبة". فاللغة الأم هي اللغة الأولى للمرء، التي يسمعها أول مرة وهو رضيع.

تجتمع في قلب اللغة الأم الواحدة كل اللغات الأم، أو بعبارة أخرى: كل لغة أم هي لغة كونية. فقد استدل نعوم تشومسكي ببراعة على أن جميع اللغات -وليس الشفاهية منها فحسب- تشترك في البنية والأسلوب. وهكذا، فإن اللغة الأم ترتبط بـ -بل وقد تتناغم مع- اللغات غير الشفاهية؛ مثل لغة الإشارة، واللغة التي تصلنا من خلال السلوك، والتكيف المكاني. عندما أرسم، أحاول أن أفكك رموز نص بصري، أحاول أن أكتبه، وهو نص أؤمن بوجود مكان مؤكد له في لغتي الأم، قد لا يكون معبرًا عنه.

يمكن فصل الكلمات والمصطلحات والعبارات عن كائن لغتها واستخدامها كمجرد وَسم، وفي احتمال ذلك تتحول هذه الكلمات لتصبح رموزًا خاملة وجوفاء. مثال بسيط لذلك، الاستخدام المتكرر للاختصارات، وكذلك الخطاب السياسي السائد اليوم الذي يتكون في معظمه من كلمات يشكل فصلها عن أي كائن لغوي تحولها إلى لغة خاوية. وهذا الاستخدام للكلمات الميتة أو "التكلّف اللغوي"، يمحو ذاكرة الكلمات ويحقق زهوًا ورضًا مستعرًا.

على مدى أعوام وأنا مدفوع بالكتابة بذلك الشعور بأن شيئاً ما بحاجة لأن يُروى، وأنني إن لم أحاول روايته، فقد لا يُروى بتاتًا. أصور نفسي كرجل يملأ ثغرة مؤقتة، أكثر من كوني كاتبًا محترفًا أو ذا شأن.

الكتابة امتداد لما هو أكثر عمقا (ترجمة)

عندما أكتب بعض السطور، أترك الكلمات تنزلق عائدة إلى كائن لغتها، وهناك، تتعرف عليها مجموعة أخرى من الكلمات وتحتفي بها؛ كلمات تجمعها بها ألفة في المعنى، أو التضاد، أو الاستعارة، أو التناغم الصوتي، أو الإيقاع. أنصتُ إلى حوارها الخفي وهي تستكشف توظيفي للكلمات واختياري لها، لتتحرّى الأدوار التي أسندت إليها.

لذلك عندما أعدّل بعض السطور، وأغير كلمة أو كلمتين، أعود إليها لعرضها مجددًا، فيبدأ حوار سري آخر. أستمر في ذلك حتى يرتفع همس خفي بالرضا المؤقت، عندها فقط، أنتقل إلى الفقرة التالية.

ويبدأ حوار سري آخر...

يمكن للآخرين تصنيفي ككاتب حسب رغبتهم، بالنسبة لي، فأنا ابن فاجرة -يمكنكم تخمين من هي تلك الفاجرة، أليس كذلك؟-

من أين نبدأ قراءة جون بيرجر؟ (ترجمة)

الكاتب: أمل نصر